حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل التاسع عشر

وزير انكليزى يزور السفير

قضينا معظم الليلة فى لندن بغير نوم لأننا كنا ننظر إلى كل شىء حولنا ونحاول أن نفهمه

وكان فى غرفة نومي ستائر من قماش مماثل للأحزمة ولكنه أرق منها . وكانت أغطيتنا ثقيلة جدًا لم نعتد مثلها فى بلادنا ، وقد تعبنا فى معرفة مواعيد الصلاة لأن الساعات عندهم لا تدار على الحساب العربى إذ الشمس لا تؤثر فى جوهم مثل تأثيرها فى جونا ، فقد تكون الشمس مشرقة منذ ساعة ولكن لون الليل لم يتغير . وقد يكون باقيًا ساعة على الغروب ولكن الأصيل فى لون الليل . وليس هناك مؤذنون ولا مساجد . ولاشك أن تقسيم النهار والليل عندهم ليس كما هو عندنا فان ليلهم طويل جدًا ولا تهدأ الأصوات فى أية ساعة من ساعات الليل . وكانت الأجراس تدق بين حين وآخر . وكنا نحسبها أذانًا أفرنكيًا فقط ، ولكننا وجدنا الأمر على خلاف ذلك لأنه يستحيل أن تكون الصلوات فى دينهم بهذه الكثرة

ولما استيقظنا فى الصباح قال لنا السفير إنه رأى منامًا وقصه علينا ففسره محمد بك تفسيرًا أرضاه . وأزال الهم عن نفسه . وذلك المنام هو أنه رأى ميرزا شافعى رئيس الوزارة الفارسية مطروحًا على الأرض والجلادون يضربونه على قدميه . وقد فسر محمد بك هذا المنام بأنه دلالة على هلاك عدوه

وأرسل إلينا وزير الخارجية الإنكليزية مترجمًا آخر غير الذى بعث به معنا السفير الانكليزى فى فارس . على أن معرفة المترجم الثانى بلغتنا كانت معرفة صحيحة ، فهو فيها كأحسن المنشئين ؛ وقد قرأ كل كتبنا الشهيرة ، ويجرى على لسانه أبيات حافظ والسعدى كما تجرى آيات القرآن على لسان المسلمين

وكاد السفير يكون سعيداً برؤية مترجمه الجديد لولا أن محادثتهما دلت على جهل سفيرنا بشئوننا الخاصة وبلغتنا نحن وبتاريخنا بالقياس إلى معرفة المترجم ...

وأخبرنا ذلك المترجم بأن وزير الخارجية الإنكليزية ورئيس الوزارة سيزورانا ، فقلنا فى أنفسنا كيف يأتيان لزيارتنا دون اشتراط شروط فيما يتعلق باستقبالنا لهما وموعد هذه الزيارة ؟ إن هؤلاء الانكليز بلا ريب لا يحفظون كرامتهم ، فإن أحدنا لا يزور — وهو فى مثل هذا المركز — إنسانًا دون أن تسبق الزيارة مفاوضات طويلة . فعند ما وصل السفير الانكليزى إلى طهران أبى رئيس الوزارة أن يزوره إلا بشروط خاصة . وانتهى الأمر بينهما بعد المفاوضة على أن تكون الزيارة فى منزل رجل ثالث محايد . أما الوزراء هنا فإنهم يلقون بأنفسهم فى أفواهنا دون أن نتكلف فتح هذه الأفواه

لكننا قبل كل شيء فارسيون ومن الذى ينكر على الفارسى تفوقه !

وجاء الوزير الانكليزى وليس معه غير تابعين اثنين، وقد جلسا أمامه قبل أن يستأذناه، فقلنا ما أعظم الفرق بين وزرائنا وهؤلاء الوزراء ! إن الوزير عندنا رجل عظيم له روعة وصولة فهو لا يخرج من القصر إلا محاطاً بمئات من الخدم ولا يجرؤ موظف تابع له على الجلوس أمامه بغير إذنه ، ولا يحييه إلا بأن يقبل طرف ثوبه وهو جاث على ركبتيه ، وإذا جرؤ أناس على المشى أمامه ضربهم الفراشون حتى يتشقق لحمهم وصودرت أملاكهم وتخربت منازلهم . إن الوزير عندنا يقول للشمس اشرق فتشرق ، ويقول لها غيبى فتغيب

أما هذا الوزير الذى زارنا فإنه مسكين لاعظمة فى نفسه ولا شمم . وقد جاء فجلس فى أقرب مكان . ولكن نظرات عينيه كانت شديدة التأثير ، فلو أنه فى بلادنا لسميناه عين الدولة . وهو فصيح تتدفق الكلمات من فمه تدفق السيل ، فلو كان فى بلادنا لسميناه لسان الدولة . ولكنه مع فصاحته وتأثير عينيه لا يصلح مطلقاً للحكم لفقدان هيبته . وقد أكد لنا أنه لا يفرق فى المعاملة بين أحد الانكليز وبين أحد المنبوذين الهندوكيين ، ففهمنا من هذا التعبير أنه لا يفرق أيضاً بين الخطأ والصواب ولا بين الحق والباطل

طلب سفيرنا إلى وزير الخارجية الانكليزية أن يقدمه للشاه الانكليزى فى أقرب الأوقات لكى يقدم إليه خطاب الشاه الفارسى والهدايا المرسلة إليه وقال إنه ما كان يظن أن يتأخر كل هذه المدة دون أن يقدم للشاه مع أنه مندوب ملك الملوك شاه إيران

فأكد الوزير الانكليزى للسفير أن كل شيء سيكون وفق رغباته مع رعاية التقاليد الانكليزية . ولكن بما أن مقابلات ملك الانكليز لا تكون إلا فى أوقات محدودة فيحسن الصبر قليلاً حتى تمكن هذه المقابلة

دهش ميرزا فيروز من ذلك وقال : إن الشاه الفارسى مستعد للمقابلة كل يوم ، فهو يجلس كل صباح على عرشه فيقبل عليه العلماء والوزراء ورجال الدولة والأعيان وكبار الأجانب وكل من يشير عليهم المنجمون بأن الساعة ملائمة لمقابلة الشاه

قال الوزير الانكليزى : إنه يأسف لأن النجوم فى سماء انكلترا لا تستطيع تحديد الساعات لمقابلة الملك ، فإن هذا ليس من شأن النجوم بل من شأن كبير الأمناء

وأدهشنا الوزير أكثر من ذلك بقوله : إن مقابلة الملك لا تطول ، وقد لا يستغرق استقباله دقيقتين أو ثلاثاً ، وإنه لا تلقى أمامه خطب ولا يقال شيء إلا بعد عرضه على كبير الأمناء ووزير الخارجية بالنسبة للسفراء ، فامتعض السفير من ذلك ولكنه كتم امتعاضه

وبعد أن خرج من عندنا الوزير قال : « ماهذه المصائب التى وقعت على رأسى ؟ إننى افتضحت مابين الرجال ، وسيبيع الشاه أبنائى إلى التركمان لو علم أننى سودت وجهه إلى هذا الحد ، وسيحرق قبر أبى وأمى » . ثم التفت إلينا وقال : « أشيروا علىّ ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لقد اسود وجهى . وشاهنا مستبد وهو لا يبالى برؤوس الرجال إلا كما يبالى الجزار برؤوس الغنم »

فقلت : « الحق فى جانبك يا جناب السفير ،

ولكننا فارسيون مسلمون، فاذا حلت بنا نقمة فاذا نفعل ؟ لا شيء ! ويجب ألاَّ نلوم أحداً فهذا هو القضاء والقدر . وإن شاهنا مستبد بغير جدال ، ولكن هل هو مع استبداده يستطيع أن يُنزل بنا ما لم يكتبه الله علينا في اللوح المحفوظ ؟»

قال محمد بك : « لقد أصاب حاجي بابا ياجناب السفير فان القدر لا مناص منه . إننا نأكل ونشرب ونحيا ونموت بقَدَر سابق لا شأن لاختيارنا وأعمالنا فيه . وإذا كان مقدراً علينا ألاَّ نرى الشاه الانكليزي إلا بعد بضعة أيام فاذا في استطاعتنا غير الصبر ؟ »

فقال السفير : « وإذا كان في هذا التقدير أن تقطع رأسي فماذا إذن ؟ »

فقال محمد بك بهدوء : « لايكون شيء ! لتقطع رأسك إذن »

قال السفير : « ما شاء الله ! ألا أحاول حفظ رأسي على الأقل ! قل كلاماً آخر وإلا فاني أقسم بذقن الشاه أن أجعل رأسك في مكان رجليك »

ولما رأينا حالته وصلت إلى هذا الحد تركناه لأننا نعلم ماذا يصدر عنه إذا انفجرت في صدره مراجل الغضب

الفصل العشرون

رئيس الوزارة الانكليزية

كانت زيارة وزير الخارجية قصيرة جداً ولم تكن منتظرة ، ولذلك لم نستطع القيام بواجب ضيافته . ولو أنهم أهملوا هذا الواجب فلم نقدم له غير القهوة الحلوة علامة على حسن الشعور والمودة بين البلدين ، ثم القهوة المرة علامة على انتهاء الجفوة التي قد تقع أحياناً بين الملوك . ونحن لا نعرف هل فهم الوزير ذلك أم لم يفهمه . ولكنه على كل حال لم يراع اللياقة، فانه لم يشرب إلا قطرة من الفنجان الحلو ثم رده ، فلما تقدم إليه الفنجان المر عافه وصار شكل وجهه مضحكا

لكننا علمنا بمجيء رئيس الوزارة قبل الزيارة بوقت كاف ،ولذلك استعددنا استعداداً كافياً، فصنع لنا حسن الطباخ أصنافاً متعددة من البقلاوة وأصنافاً أخرى من الحلوى فيها اللحم والخضار مصنوعين بالعسل والدقيق إشارة لامتزاج جميع المصالح بين فارس وبين بريطانيا، وأعدَّ كذلك عدة أنواع من الشراب الذي امتازت به فارس

وكانت بعض زجاجات الشراب قد كسرت في طريق السفر فأفرغ الطباخ مابها في أوان من الصاج بعضها أبيض اللون والبعض ذو ألوان أخرى . وقد وجدنا هذه الأواني بأماكن متعددة من المنازل الانكليزية التي نزلنا فيها . فلما رأى المترجم هذه الأواني وفيها الشراب أغرق في الضحك . ولما أخبرنا عن نوعها وما تستعمل له سترنا وجه الخجل بنقاب الجهل وحمدنا الله على أننا لم نشرب منها ولم نعرضها أمام رئيس الوزارة

أخيراً جاء رئيس الوزارة وهو في ثوب أسود كالذي يرتديه وزير الخارجية، وليس هناك أي فارق بين المرؤوس وبين رئيسه . وقد أخبرنا المترجم أن هذا الثوب هو الذي يرتدونه أمام شاههم . وإنهم يرتدونه الآن إجلالاً لسفيرنا

وكان شكل رئيس الوزارة كشكل الدراويش فهو متواضع رقيق . وانه ليدهشنا أن تدار شئون دولة كبيرة بيد درويش مثل هذا . ففي بلادنا يكون

الشاه (كما يقول المترجم) رئيس وزارة نفسه وهو يضطر لتأييد نفوذه إلى سفك كثير من الدم فى أول عهده بالحكم لكى يُهاب . وفى تركيا عند ما يعين الصدر الأعظم وهو رئيس الوزارة عندهم ؛ فانه يبدأ عهده باقامة المشانق وإعدام بعض أغنياء المسيحيين أو اليهود . ولكن رئيس وزارة الانكليز كما قال لنا بلسانه لم يقطع ولايد لص ، ولم يدق أذن بائع على باب حانوت

قدمنا إليه طعام الافطار وهو شهى كما وصفته ولكن العجيب المدهش أنه لم يوافقه فامتنع عن الأكل . وصار السفير يقدم له أحسن الأجزاء بأصابعه فيعتذر ؛ وقد ساءنا ذلك كل الاستياء لأنه من يصدق أن الذى يأكل لحم الخنزير لا تعجبه البقلاوة ؟

لكن هؤلاء الانكليز قوم مدهشون حقاً

زارنا بعد ذلك عدد من وزراء الانكليز على التتابع ؛ وقد ظهر لنا أنهم لا يعرفون مهمة الوزير ولا يعرفون أى شىء عن نظم الحكم ؛ فمن أمثلة ذلك أن لديهم وزيراً للغابات !

وقد ضحكنا عند ما سمعنا ذلك ضحكا شديداً لأن الغابات عندنا في فارس لاتساوى أجر خفير يحرسها فضلا عن أن يخصصوا لحراستها وزيراً ! ولكنهم فقراء ، والوقود عندهم عزيز جداً لشدة البرد فى بلادهم فى الشتاء . وهم مع فقرهم مسرفون ، فلو أراد الشاه أن يجعل حكومته وفق نظام الحكومة الانكليزية لعين وزيراً للصحارى ليحصى ما فيها من النخيل والهضاب والذئاب

ولما قلنا ذلك للمترجم قال إن الغابات فى انكلترا ضرورية لوجودها كضرورة الخيول والسيوف فى إيران : وقد صدقناه لما تذكرنا صناعة السفن فى انكلترا وماتستلزمه من الأخشاب ، مادامت سفنهم على الشكل الذى رأيناه

وفى جملة من زارنا من وزرائهم وزير البحرية ووزارته من أكبر الوزارات . وبالرغم من أن كثيراً من المدن الفارسية مثل بوشير وهرمز واستراباد ورشت وغيرها واقعة على البحر فاننا فى بلادنا لا نكاد نعرف ما هى السفن . وسيعتقد الفارسيون عند ما نعود إليهم ونحدثهم بما رأيناه أننا نتلو عليهم قصة من ألف ليلة وليلة

وزارنا موظفون آخرون لم نستطع فهم أعمال كل واحد منهم ، فقد قيل عن بعضهم إنه فى قصر الشاه ، وعن البعض أنه موظف بغير وظيفة ، وهو فضلا عن ذلك غير خاضع للحكومة بل رقيب عليها ، واسم هذا الصنف من الناس نواب البرلمان . ونحن نأمل فى المستقبل أن نعرف الفروق بين بعضهم والبعض الآخر فانهم فى نظرنا رجل مكرر ، فتحياتهم واحدة وأخلاقهم واحدة وثيابهم كذلك

ومن بين الذين زارونا رجل اهتممنا به اهتماماً كبيراً بالقياس لمكانته بمكانة نظيره فى فارس وهذا هو رئيس التشريفات

لكنه تبين لنا أن الفارق عظيم بين الرجلين ؛ فرئيس التشريفات فى فارس يجب أن يكون من أسرة القاجار وهى الأسرة المالكة المشهورة بجسامة لحاها . وقد أنعم الله على رئيس التشريفات الموجود الآن فى فارس بلحية تكاد تكون أكبر من لحية الشاه نفسه . وهو يرتدى لباساً خاصاً ويتكلم بلهجة خاصة . ومعرفته بأنواع التحيات وضروب التملق لا تعدلها معرفة . ولكن التشريفاتى الانكليزى

رجل لا مظهر له ولا وجاهة ، بل هو نحيف قصير

وقد كان السفير مدة زيارته ينتظر أن يقول شيئاً عن مقابلة ملك الانكليز ولكنه لم يقل شيئاً

وبعد ثلاثة أيام أخرى سمح لنا بتلك الزيارة فحمدنا الله على ذلك

الفصل الحادى والعشرون

ملك الانكليز

لما تحدد موعد الزيارة هيأنا الهدايا وحررنا قائمة بأنواعها وحمل السفير في جيبه خطاب الشاه وأمر بتهيئة الخيول فصبغنا بالحناء بطونها وذيولها ، ولكن محمد بك أجرى حساباً لتحويل التاريخ الأفرنكى إلى تاريخ عربى فتبين أن اليوم المحدد لهذه الزيارة « يوم أربعاء سفر » وهو يوم مشئوم عندنا نحن الفارسيين

ولما طلبنا إلى المترجم تغييره قال إن ذلك ليس فى الامكان ، فسأله السفير عن كيفية الاستقبال فقال إنه سيكون كاستقبال أى سفير آخر

قال السفير : « كيف ؟ » فقال المترجم : « ستذهب في عربتك إلى القصر الملكى فيقابلك رئيس التشريفات ووزير الخارجية فتقدم أوراق اعتمادك إلى الأخير أمام الملك

قال السفير : « وهل تظننى أكتفى بهذه المقابلة ؟ »

فقال المترجم : « لماذا لا تكتفى بها وهى التى يقابل بها جميع السفراء ؟ ثم ماذا تريد أن يكون غير ذلك ؟

قال السفير : « وماذا يهمنى من سائر السفراء ؟ إن فى العالم ملوكا كثيرين يمثلهم السفراء ويرضى هؤلاء بما يرضى به ملوكهم ، ولكننى أعرف الشاه الذى أمثله . إن شاهي يتربع على أقدم عروش العالم . وإذا كنت تريد أن تعرف من هم جدوده فإنى أعدهم لك من عهد نوح . وكيف تقرن أسماء ملوكهم باسم ملك فارس ؟ إننا إلى الآن لم نسمع بأسمائهم فعليكم أن تعرفوا فضلنا عليكم وتكفوا عن حماقتكم

قال المترجم : « ما هذه الكلمات ؟ هل تريد أن تغير عوائد البلاد ؟ وإذا اختار شاهكم أن يرسل لحيته فهل هذا يلزم ملكنا أن يفعل مثله ؟ أليس لكل أمة عوائدها ؟ »

فقال السفير : « لما جاء سفيركم إلى طهران قابلناه مقابلة لا أتنازل عن مثلها . لقد ذهب إليه عم الملك لاستقباله . وكانت الجنود على الصفين تؤدى له التحية ما بين مسكنه وبين القصر ، وألقيت قطع السكر تحت حوافر جواده ، وصدحت الموسيقى ورفعت الأعلام فى السوق وأمر الناس بأن يؤدوا له واجب الاحترام وسمح له بالوقوف أمام الشاه . وأنى لأقسم بدقن النبي عليه الصلاة والسلام لا أذهب إلى القصر الملكى إن لم أقابل هذه المقابلة . وكيف أذهب كما يذهب أى فرد من الأفراد مع أنى ممثل ملك الملوك . لا بل إنى سأعود هذا اليوم وأسأل الله أن يحفظني من الاهانة التى أردتم إلحاقها بي »

قال المترجم : « هذا مطلبك وقد يوافق عليه الملك . وسأبلغ أقوالك هذه لوزير الخارجية . ولكن الملك قد يرفض مقابلتك بتاتاً بسبب هذه الشروط »

هاج السفير ووقف وكاد الشرر يتطاير من عينيه وقال :

« أجبنى فى الحال هل أنا سفير أم لا ؟ »

قال المترجم بهدوء وإن كان الغضب بادياً عليه : « وهل ملكي ملك أم لا ؟ »

ثم سمعناه يقول بصوت خافت كلمة باللغة الانكليزية هي (دمن) وهذه كلمة كنت سمعتها في السفينة بين بعض البحارة والبعض كما سمعها السفير

قال السفير : « هل تقول أني دم ؟ أأنا دم ؟ أنت دم وأبوك دم ! لماذا أبقى عنا ليقال عني دم ؟ إنني رجل كبير الأهمية في بلادي ، وسأحرق قبر والديك لتعلم أنني لست دمن . إنني لم أقطع كل هذه الأرجاء لأسمع منك هذه الكلمة »

ففتح المترجم عينيه وفمه كالأبله ثم نظر إلى ساعته ، ووضع قبعته على رأسه ، وأدخل كفيه في قفازيه ، وأخذ عصاه وقال لنا : « أرجو ألا يقصر الله ظلكم » ثم ترك المنزل

ولما كنا معتادين رؤية السفير في أوقات غضبه فإننا لم نر فيما حدث شيئاً يخالف المعتاد لأنه كان يمثل دور المفاوض الماهر ، وهو يعلم أنه كلما زاد في التظاهر بالغضب كان أقرب إلى النجاح في المفاوضة حتى لا يشمت فيه خصمه ميرزا شافي

وبعد خروج المترجم أطرينا السفير وقلنا : إن الانكليز في حاجة إلى من يلقنهم درساً في حقوق السفراء . وقلت له : « هم يظنون أنه ما دام لديهم عربات وليس لدينا شيء منها ، وما دام ملكهم ملكاً على الهند وليس لبلادنا بلاد أخرى تتبعها ، فهم أفضل منا . ويظنون أنهم بذلك قادرون على إكراهنا على مالا نريد . ولكنهم واهمون وسنعلمهم إن شاء الله بهمة سفيرنا كيف تكون العناية بنا

وقال محمد بك : « نعم . نعم ! الله أكبر إن سفيرنا سيعلم الدين يأكلون لحم الخنزير أن أكلهم حرام ! »

ثم صار كل واحد منا يقول ما يلهمه الله إياه من مدح السفير وذم الفرنجستان لتؤيد عظمة شاهنا في هذه البلاد

ولكن النهار انقضى ولم يعد المترجم ، وظننا الانكليز لم يقبلوا المفاوضة . وخشي فيروز خان أن يبلغوا الشاه بواسطة سفيرهم أنهم لا يقبلون زيارتنا للكهم ، فيشمت ميرزا شافي ويفهم الشاه أننا أخفقنا لأننا أجهل من أبي جهل ، والتفت إلينا وقال : « ألم يكن ما قلته صواباً ؟ »

فأكدنا له أن ليس في الإمكان أحسن مما قال ، ولكنه صار يكرر هذا السؤال بين لحظة ، ولحظة ونحن نجيبه نفس الجواب

وأخيراً نفد صبره فأرسلني إلى منزل المترجم لأدعوه إلى تناول العشاء معه في هذه الليلة وكنت أعرف أن أحد هؤلاء الفرنجة إذا غضب فلا يزول غضبه إلا باتباع سياسة تدل على المهارة ... ولذلك كنت أمشي نحو داره مفكراً غير مقدر النجاح . ولكن العجيب أنني وجدته هادئاً كأي واحد بعد انتهاء المشاجرة أي كأنه لم يحدث شيء . وقد قبل الدعوة للعشاء مع السفير

وعند ما وصل كنت مع ميرزا فيروز وكانت مقابلتهما ودية كالعادة ، فوضع السفير يده على ظهر المترجم وقال : « ما شاء الله ! لقد برهنت على أنك رجل يا ميرزا . وهذا بلا ريب بعض ما استفدته من فارس . أما الذين لم يسافروا إليها من الفرنجستان فانهم يغضبون غضباً حقيقياً . إنك رجل يا ميرزا وقد عرفت كيف تبدأ بالغضب وكيف تنتهي منه .

ولقد قال حافظ : «إن الحب الصادق كغضب الأحمق يستمر فى الغليان بعد أن تزول أسبابه »

فأجاب المترجم : «أتمنى ألا ينتهى عهد صداقتنا، وقد أبلغت رغباتك إلى وزير الخارجية »

ظهر الاهتمام الفجائى على وجه السفير وقال : « ما ذا ؟ وما الذى قال ؟ » فقال المترجم : « إن الوزير قال إنه لا يرى صعوبة فى استقبالك كما تريد ، فعندنا جنود كثيرة لا بأس من اصطفاف بعضها على جانبى طريقك إلى القصر وعندنا عربات كثيرة وأعلام أكثر »

قال السفير : « إن هذا عجيب جداً ! إن هذا مدهش . إننى لا أفهم عقولكم يا معشر الانجليز فأنتم لا تثيرون المصاعب ولا تتركون مجالا للمفاوضات » فقال المترجم : « ذلك فى الأمور التافهة فقط »

قال السفير : « هل تعدون مقابلة السفراء أمراً تافهاً ؟ إنكم لم تفعلوا عشر ماتفعله فارس . فهل كرامة الملوك عندكم لا تعد شيئاً ؟ »

قال المترجم : « لقد كانت دول أوربا فى العصور الماضية تعنى بمثل هذه الأمور التافهة . وكان المظهر عندهم أجل من معناه

ولكنهم بعد ذلك رأوا أن فخامة الاستقبال ليست هى الدليل على الود فتركنا كثيراً مما تتمسكون به اليوم ، وقد كان أجدادنا أكثر تمسكا به منكم »

عند ذلك مشط السفير لحيته بأصابعه وفتل شاربيه وظهرت عليه علائم التفكير وشعر بأن مكانته عند الفرنجستان قلت ، مع أنه لم يكن يرجو بالتشبث إلا زيادتها

وأخيراً صاح « وهل أنتم : تظنون الآن أننا لسنا بجانبكم إلا ألواحاً من الخشب ؟ إننا أمة متمدنية من عصر أنو شروان ومنا جامشيد وجانكيز خان ونادر شاه ومحمد أغان خان وفتاح على خان

أجابه المترجم على أقواله جواباً أرضاه ثم جىء بالعشاء

الفصل الثانى والعشرون

ملك الانكليز

جاء اليوم الذى كنا نتمناه من عهد طويل ولكن لسوء حظى كنت مصاباً بغصص فى القلب فى ذلك اليوم ، فكانت مرافقتى للسفير فى هذه الزيارة من المحال واستأذنته فى تركى بالمنزل . وأذن لى بغير صعوبة . وأدهشنى منه أنه مر بتخافى عن الحضور ودلنى ذلك على أنه لم يزل يعتبرنى جاسوساً عليه لرئيس الوزارة الفارسية

وكانت رؤية السفير فى ذلك اليوم من المناظر السارة فقد أتقن لبس ثيابه . والحق أن الفرنجة لا يفهمون كيف يكون إتقان اللباس فنحن نعرف ضروباً من لف الحزام ووضع الخنجر فيه بأشكال لائقة جميلة ، ولنا أساليب فى إمالة القلبق وإخراج خصل من الشعر من تحته ، وغير ذلك من التفنن فى الزى

وكان خنجر السفير وسيفه مرصعين بالجواهر وعلى قلبقه الريشة ، فقلنا عند رؤيته ما شاء الله ! »

ومشى السائس بعصاه الطويلة أمام جواد السفير ووراءه رجالنا تحيط بهم كوكبة من عساكر الانكليز وعلى الصفين جنود انكليزية كان ضباطها يضحكون، وقد كان بعض المصورين فى الطريق مستعدين لالتقاط هذه الصورة البديعة

وكان فى انتظار الموكب على باب القصر خان

انكليزى كبير يقال له سكرتير الملك

لم أستطع مرافقة الموكب كما تقدم فاكتفيت بأن أطل عليه من النافذة وهو ذاهب وسمعت وصف المقابلة من محمد بك . وقد أيقنت أن مقابلة الملوك فى تركيا وفي فارس أروع من مثلها فى هذا البلد . وقد لاحظت أن شكل جيادنا أجمل وآنق من شكل الجياد الانكليزية فان جياد إيران من جنس الجياد الروسية

انتظرت فى صبر نافد حتى رجع الموكب لأعرف تفصيل ما حدث فى القصر . فقال لى السفير عند عودته : « لقد فاتك منظر رهيب يا حاجى بابا . لقد فاتك رؤية الشاه الانكليزى ! إنه أطيب الملوك كما يقولون . ولذلك يتغانى شعبه فى محبته ، وقد أظهر لى من العطف ما ليس يظهره إلا الآباء لأبنائهم

ولقد اتضح لى أن العادات فى القصر تخالف أمثالها فى بلادنا . ولكن الملوك ملوك أينما كانوا وعلى أية حالة كانوا ، فالهيبة تتجلى على هذا الشاه الفرنجستانى كما تتجلى على ملك الملوك في طهران

وقال محمد بك : « ولكن الفرق الوحيد أنك تقف أمام ملك الانكليز مطمئناً . أما الواقف أمام الشاه فإنه يخشى على رقبته من السيف ، وعلى رجليه وظهره من العصا ، وعلى يديه من السلاسل . وقد رأينا الواقفين أمام ملك الانكليز كأنهم يقفون أمام زميل لهم

نظر السفير إليه وإلى سائر الأتباع الذين رافقوه فى الزيارة وقال : « وهل تكلمت أمامه كلاماً حسناً ؟ »

فصاحوا : « ماشاء الله ! إن أفلاطون ما كان ليقول أجمل من هذا » وقال السفير : « لقد عرفت كيف أمثل الشاه وأحافظ على كرامته

وقال محمد بك : « نعم فانك لما دخلت غرفته لم تخلع نعليك ولم تركع ، فذلك مالا يجب علينا لغير الشاه الفارسى »

فقال السفير : « نعم ، ويظهر أن أتباعه أنفسهم لا يفعلون ذلك فليس فى غرفته عرش ولا مكان لخلع النعال ولا مكان للسجود . وأنا وقفت على نفس البساط الذى كان الملك واقفاً عليه . وسلمته خطاب الشاه يداً بيد ، وقد وقف الملك على قدميه عندما دخلنا وكنا كلنا في مجلس واحد . والحق أقول أن هذا الملك ليعد طفلا بالقياس إلى ملكنا ؛ فليس فى غرفته فلقة ولا مقرعة ولا سيف ولا فى حاشيته جلاد . بل فى اعتقادى أننا إذا أهنا الملك لما حوكمنا فى حضرته ، بل كانوا يسلموننا إلى من يحاكمنا فيما بعد كما لو كنا نهين أى إنسان

قلت : « إن مكانة الملوك حقيرة فى هذه البلاد »

فقال تقى الدين : « نعم ويظهر أن عقوبة الضرب على القدمين غير مسموح بها هنا »

قال محمد بك : « نعم وقد أخبرنى المترجم الانكليزى بأنه وإن كان الذى يعتدى على ملك الانكليز لا يحاكم في حضرته ولكنه يعرض رقبته لحبل المشنقة »

فقال الرياخور : « إذن فالحال عندنا أحسن ألف مرة . إننى أفضل أن أضرب كل يوم لو شتمت الشاه على أن أعلق على المشنقة من أجل كلمة أقولها »

صاح السفير : « اسكت ياوغد ! لو سمعك الشاه لقطع لسانك ! أخرج من هنا »

وكان الرياخور أغا بك قد سمع كما سمعنا عند قدومنا إلى هذه البلاد ، أن الحرية مكفولة لكل إنسان وأنه لا يجوز القصاص إلا بوساطة القاضى ،

ولما طرده السفير أيقن أن العقوبة حالة به لا محالة ، فخرج مهرولاً إلى باب الطريق وهو يصيح : « أنا فى عرض ملك الانكليز »

وما كادت هذه الكلمة تبلغ آذان السفير حتى كاد يجن من الغضب وأمرنا باعتقاله وصاح : « أقسم بذقن النبي أنى أكلزك فى الحال : كلزوه ! هاتوا المقص واحلقوا لحيته وشاربيه »

فانطلقنا وراء أغا بك وجئنا به وطرحناه أرضاً ، وقام السفير وجلس على صـــدره وهو يقول : « سأكلزك فى الحال وحق ذقن النبي ورأس الشاه » ثم أخذ المقص وقص لحيته وشاربيه وأغا بك يصرخ ويستجير . وإذا كان أغا بك يستجير بملك الانكليز فانه فارسي قبل كل شيء ، وقص اللحية أكبر شتمة عندنا نحن الفارسيين ذوى الشوارب الطويلة واللحى المريضة المرسلة

ولما رأى أغا بك أن الانكليز ومليكهم لم ينقذوا لحيته وشاربيه أخذ يلعنهم هم واليوم الذى زار بلادهم فيه . وكان حزنه أبلغ حزن رأيته منذ رأيت حزيناً إلى اليوم

وفى صباح اليوم التالى ركب جواداً عدا به ولا نظنه يقف فى الطريق حتى يصل إلى طهران

الفصل الثالث والعشرون

ملوك الرمل

في اليوم الذي عاد فيه السفير من مقابلة الملك زارنا أناس مختلفو الدرجات . وكان غرضهم الأول من الزيارة ترك قطع صغيرة من الورق عليها أسماؤهم ومحل إقامتهم ، والانكليز يعتقدون أن ذلك تكريم لنا وقد عجبنا من ترك هذه الأوراق التى لا يرجى منها أي نفع

ولكن المترجم أكد لنا أن كل ورقة من هذه الأوراق تعد فى مقام زيارة . وقال : إنه إذا كانت الزيارات فى انكلترا مثلها فى فارس بمعنى أن الرجل يبعث برسول يعلن أنه قادم ثم يذهب بعد رجوع الرسول ويمكث عنـد المزور حتى يدخن ثلاثة غليونات ويشرب فنجانين من القهوة ، فان أعمار الانكليز ما كانت تتسع لزيارتهم وأعمالهم

ولما سأله السفير عن الطريقة التى يرد بها هذه الزيارات قال : إنه سيطبع له مثل هذه القصاصات ثم يذهب معه لتوزيعها على بيوت الناس

فضحك السفير ملء شدقيه . ولشد ما كان سروره عند ما رأى اسمه مطبوعاً باللغة الانكليزية وعلى الأوراق الصغيرة التى جاء بها المترجم

وزارنا أناس آخرون يحمل كل منهم دفتراً فيه توقيعات أناس مختلفين ، وطلب إلينا أن نوقع على دفتره وأن نعطيه (بقشيشاً) كالأتراك ، ونحن لا نعرف مهمة هذا الرجل ولا فائدة دفتره . وجاءنا رجل آخر يطلب البقشيش لأنه دق أجراس الترحيب بنا يوم وصولنا . وما كنا نعرف أن الأجراس تدق للترحيب فهى فى بلادنا تدق لمسير القوافل ، وهى فى بلاد النصارى تدق للعبادة . ولكننا أعطيناه على كل حال ما أراده

ثم جاء رجل آخر يقول إنه مندوب جريدة وأن مهمته أن يسجل أسماء الذين يزورون قصر الملك وينشر هذه الأسماء في ورقة كبيرة يبيعها ، ولا أعرف لماذا يشترى الناس هذه الأوراق ! وقال إن مهمته اختيارية فلم يكلفه أحد بها ، وأن من يدفع له مالاً يكافأ بكتابة اسمه فى الجريدة . ومن لا يدفع يعاقب باهمال اسمه ، فدفع له السفير ما أراد

وقد كانت كل لحظة تمر تزيدنا خبرة بأحوال الانكليز وعاداتهم ، وكلها عجيب غريب ، وكنا نتناقش كل يوم مع المترجم فى كل ما نراه . وفى يوم من الأيام جاءنا المترجم مهرولا وقال : إن اثنين من ملوك الهند سيزورانا اليوم فكدنا نذهل ، وقلنا فى أنفسنا كيف يمكن أن يأتى الملوك للزيارة بغير مقدمة ولا سابقة إنذار . وقمنا إلى النوافذ مسرعين ونحن نتوقع أن نراهما فى مواكب تركب الأفيال . ولكننا لدهشتنا رأينا عربة قذرة فيها رجلان ليس معهما حاشية ولا جنود . وسألنا المترجم كيف يمكن أن يكون هذان الرجلان من الملوك ، فقال إنه من الصعب تفسير الأمور فى وقت قصير وأنه سيشرحها لنا بعد انقضاء الزيارة

وأدركتنا الحيرة فى الطريقة التى يجب أن نستقبلهما بها ؛ فلما جاءا اتضح لنا أنهما فى نهاية البساطة ، ولافرق بينهما وبين أى سوقى فى بلادنا ، وهما يحلقان ذقنيهما كالكفار ويلبسان ثياباً عادية وليس عليهما أى مظهر من مظاهر الوجاهة

ولما انقضت الزيارة نظرنا من النافذة فلم نجد العربة فى انتظارها ويظهر أنها عربة كراء . وسار الملكان على قدميهما ، فقلنا سبحان الله ! أهكذا يكون ملوك الهند القديمة التى يرجع إليها عهد حضارتنا ... الهند ذات الجواهر والأفيال يحكمها أمثال هذين المتشردين !

ثم قال لنا المترجم إن ملوك الهند ليسوا مثل سائر الملوك فان إيراد بلادهم يأخذه الانكليز ، وهم مرؤوسون فى الهند لرجل انكليزى ينوب عن ملك انكلترا وهو مرؤوس هنا لوزير انكليزى لقبه وزير الهند . ولهذا الوزير مجلس يحضره ملوك الهند وهذان الملكان من أعضاء هذا المجلس ، والحق أن هذا الكلام لم يعجبنا ولم نفهمه ، والذى استطعنا أن نقتنع به هو أن الشاه الحقيق فى الهند هو الانكليزى الذى يقولون عنه نائب الملك وأن هؤلاء الملوك ليسوا إلا سفراء له لدى الحكومة الانكليزية مثل فيروز خان سواء بسواء . ولما سألنا عن دينهم فهمنا أنهم يعبدون الشمس والثيران ويأكلون لحم الخنزير

الفصل الرابع والعشرون

ملكة انكلترا

أصبحت الهدايا التى أرسلها السفير إلى ملك الانكليز موضوعاً لحديث أهل المدينة . وعلمنا أن نساء الأمراء واللوردات ذهبن إلى الملكة ليرين الشيلان والجواهر والمصوغات التى أهديناها لها . وعلمنا أن فى القصر الملكى رجلاً برتبة تعادل رتبة خان يؤدى وظيفة التشريفاتى للملكة فلا يقابلها أحد إلا باذنه ، فهو ليس مثل الأغا فى القصر الفارسى وقد وصلتنا دعوة من هذا الخان لزيارة الملكة

وقد كان سفيرنا خائفاً من الذهاب بالرغم من وصول الدعوة إليه ، وسأل المترجم : أليس الواجب أن نستأذن ملك الانكليز؟ فأكد له أنها تستطيع أن ترى كل من تريد رؤيته من الرجال ، وأنه لاداعى إلى الاستئذان . فلما رأى السفير أن هذه عوائدهم حقيقة قبل الدعوة التى موعدها فى اليوم التالى وأخذ الكتاب المرسل إليها من كبيرة زوجات الشاه

وقلنا نحن ذاهبون لنرى زوجة الشاه الانكليزي وبناته وأجمل الجميلات فى الحاشية . وهذا الحظ لا يتفق إلا للقليلين ، فالحمد لله على ذلك . وإذا كان النساء العاديات اللواتى نراهن فى الطريق يحيينا

ويقتلننا كل يوم بروعة جمالهن فكيف تفعل بقلوبنا التي سبت قلب شاه الفرنجستان ؟ إن نظرة واحدة إليها وإلى الأقمار اللواتي حولها ستفتننا وتصبينا

لبس السفير أجمل ثيابه ومشط شعر رأسه ولحيته وتطيب بالمسك . وفعلت مثل ذلك ورفعت شاربيّ حتى وصل طرفاهما إلى عينيّ . وسكبت في الماء الذي اغتسلت به زجاجة من ماء الورد . وركبنا إلى القصر الملكي فلم يقابلنا إلا الرجال . ولم يبد أي دليل على أن بالمنزل نساء

وأجلسنا في ردهة مفروشة بأبدع الرياش . وبعد انتظار لحظات ظهرت الثياب النسوية تخطر فيها الجميلات عن بعد وبينهن أمير من أبناء الشاه

ولما وقفنا وتهيأنا لاستقبال الأميرات والأمير تبين أنهن وإياه في جملة الخدم وأن الأميرات لم يظهرن بعد

ولقد خجلنا من مسلكنا أشد الخجل وعدنا إلى الجلوس؛ ثم ظهر نشريفاتي الملكة ومعه امرأة عجوز قال إنها هي صاحبة الجلالة فدهشنا، لأنه ما الذي يحمل جلالة الملك على البقاء مع عجوز كهذه وفي بلاده آلاف من الصبايا الجميلات ؟ ولقد كانت نظراتها كنظرات الوزراء لا كنظرات النساء، فلا رقة ولا دلال ولكن سطوة وهيبة . وسألت السفير أسئلة لا يلقى مثلها إلا العلماء ، فهي أسئلة صعبة جديرة بأن تحير العالم الحصيف

ولما قدمنا لها خطاب كبيرة زوجات الشاه سألت هل هذا الكتاب مكتوب بخط يدها ؟ فرأيت علامات الخجل على وجه السفير لأن الكتابة ليست من شئون السيدات في فارس فبماذا كان يستطيع سفيرنا أن يجيب ؟

لقد أجاب بأن الخطاب حرره منشئ الدولة

فلما ترجم هذا القول للملكة ابتسمت، ولكننا لم نفهم هل كان ابتسامها ابتسام إعجاب أم سخرية ؟

ثم عرضت عليها الهدايا فلم يستلفت نظرها بوجه خاص إلا ثياب المرأة الفارسية ، وهي حقاً جديرة بالإعجاب، فهي مطرزة بالذهب المرصع بالأحجار الكريمة . وأخذت الملكة تسأل عن أشياء كثيرة . واجتمع سيدات القصر حول السفير وهو يشرح للملكة كيف تلبس السيدة هذه الثياب ، وأبدى ملاحظات كثيرة عن القميص القصير والجبة النسوية . وقد ضحكن كثيراً بالرغم من وجود الملكة بينهن عند ما رأين أجزاء من الثياب تحشى بالقطن ليظهر مادونها من الجسم كبير الحجم . وأعجبت الملكة بمعرفة الفارسيين وحكمتهم عند ما قدم إليها السفير النصوص التي تمنع السحر والعين والنصوص الأخرى التي تمنع الأمراض والتي تجبر الكسر في أقل من شهر

ولقد استرعت الملكة اهتمامنا بكثرة أسئلتها حتى شغلتنا عن النظر إلى بناتها الجميلات اللواتي تأنس العين برؤيتهن ويستمتع الخيال بالتفكير فيهن . والحق أني لم أر عيوناً أشبه بعيون الغزلان من عيون هؤلاء الأميرات ولا أجساداً أشبه بالحرير من أجسادهن

ولما فرغت الملكة من أسئلتها بدأن يسألننا أيضاً ، وكنت كلما وقع نظري على إحداهن أقول في نفسي : « ماشاء الله ! عوذت جمالك من عين باسم الله ! » وأتساءل كيف يرضى رجال هؤلاء الجميلات بسفورهن ، ونصر نحن على إخفاء أوجه نسائنا ؟ وقد سألنا الملكة هل بناتها متزوجات

فأدهشنا حين قالت أنهن لم يتزوجن إلى الآن . وأنى لأعجب من تأخر زواجهن وهن بنات الملك مع أن من تبلغ هذا العمر فى بلادنا تعد بائرة ؟

وقال السفير للمترجم : « لماذا لا يفعل شاهكم مثل شاهنا فينعم على وزرائه ببناته ؟ إن أكبر مكافأة عندنا للوزير أن ينعم عليه الملك بعرس من الأسرة المالكة، وإذا لم يسجد الوزير شكراً للشاه على هذه النعمة فان رأسه تجعل فى الحال مكان رجليه . والحق أن ملوكنا يديرون هذه الشئون أحسن مما يديرها ملوككم

ولما استقصينا فى السؤال وجدنا أن الزواج فى الأسرات المالكة أقرب إلى الزواج عند المسلمين منه عند النصارى ، لأن المحبة ليست شرطاً فى الزواج ولا ضرورة لسابقة المقابلة . ويكفى أن يقول الملك لبنته إنها أصبحت زوجة لأمير ما فتقبل طائعة أو مكرهة؛ وهذا الزواج عندهم يدعونه بالزواج السياسى والحالة مثل هذه مع الزوج من البيوت المالكة

وهمس السفير فى أذن المترجم سائلا : أليس فى هؤلاء السيدات جارية رقيقة للملك فربما كانت الرقيقات توجدن سراً فى قصور الملوك دون غيرهم، فعاد المترجم إلى التأكيد باستحالة وجود الرقيق فى هذه البلاد

سأله السفير : أليس فيهن سريات أو راقصات أو خادمات سرير أو وصائف حمام . فأجاب المترجم بالسلب وهو يبتسم ثم قال : إن هذه الضروب من النساء لا توجد إلا فى القصور الملكية . وإن الرقص فى انكلترا يخالف الرقص فى فارس ، ففى انكلترا يرقص الرجال مع النساء ولا تأخذ الراقصة أجراً ...

ولما قمنا كانت الملكة فى نظرنا أكبر كثيراً مما كنا نظن قبل أن نحادثها، وكان كل يوم يمر بنا يعلمنا شيئاً . وما كان غامضاً أمامنا فى شأن النساء أصبح الآن واضحاً جلياً

الفصل الخامس والعشرون

الصمدة والمأكل

شغلنا بمن يزورهم ويزورونا حتى كدنا ننسى أننا مسلمون وأننا نعيش فى بلاد غير مسلمة ، وأهملنا الوضوء والصلاة بالرغم من أن محمد بك كان ينبهنا كل يوم إلى هذا الواجب . ويؤنبنا على تركه ويحذرنا من أن نصبح مثل الذين يعيشون حولنا ، والذين لا يبدو عليهم أنهم يدينون بأى دين

وكان محمد بك مشتغلاً بالبحث عن الاتجاه الصحيح للكعبة الشريفة ، لأن مباحثه منذ وصلنا إلى انكلترا لم تقنعه . وكانت الأبرة المغنطسة « البوصلة » قد كسرت منه . وأية فائدة ترجى من الصلاة إذا كانت وجوهنا مولاة نحو بقعة قذرة من الأرض لا نحو الكعبة المطهرة ؟

وكان من سوء حظنا أيضاً أننا لم نر الشمس مرة واحدة منذ وصلنا إلى هذه البلاد فتحقق لدينا ما كنا نسمعه فى فارس من أن بلاد الانكليز لا تزورها الشمس

ولما كاد ييأس من معرفة القبلة وكنا جالسين مع السفير أقبل علينا محمد بك وهو يصيح : خبر سار ! لقد ظهرت الشمس . فأطللنا من النافذة ورأينا السحائب خفيفة فى شكل بخار ومن ورائها قرص الشمس ولكنه ليس مشرقاً كالشمس التى تظهر فى سماء فارس ، فان الأخيرة لا يجرؤ إنسان

على التحديق فيها . أما تلك الشمس الانكليزية فان الانسان ينظر إليها ساعة أو ساعتين دون مبالاة كما ننظر فى بلادنا إلى القمر . ولكننا مع ذلك استبشرنا بطلعتها وأخذ بعضنا ينظر إلى البعض ويقول : « مبروك » وعرف محمد بك بالدقة موقع الكعبة :

لكن هذا الحادث دل على أن الانكليز يجهلون كل شيء عن ديننا ، فان الموجودين منهم فى مجلسنا فهموا من فرحنا بظهور الشمس أننا نعبدها . وقال أحدهم ذلك للسفير ، فغضب والتفت إلى وقال : « ما لهؤلاء الانكليز كيف يفهمون ؟ إننا لو كنا نعبد الشمس كما يتصور ، فاننا نستنكف أن نعبد شمسهم هذه التى لا يقوى نورها على اختراق السحاب » والتفت إلى المترجم وقال : « أخبر هذا الميرزا بأن الله لم يرسل نبينا إلا لمحاربة الوثنية »

لكن هذا الميرزا الانكليزى لم يقنعه الجواب وأخذ يجادلنا مستشهداً بتاريخ فارس قبل الاسلام وقد تبين من مناقشته أنه يظن أن الفارسيين لا يزالون على عقائدهم القديمة مع خلاف يسير أدخله المسلمون فى بلادهم . وسألنا ألسنا نقطع رؤوس الخيل تكريماً لظهور الشمس ؟ »

فقال السفير مازحاً : « لو كنا نفعل ذلك فى شمسنا الحارة فاننا فى بلادكم لا نقطع إلا ذيول الخيل

وقد لاحظنا أن الانكليز لا يغضبون من المزاح فان هذا الميرزا الانكليزى ضحك وقال إن الشمس جديرة بأن تعبد على كل حال

ولما رأينا القوم يجهلون ديننا أصررنا على أن نباشر أمور الدين علانية ليفهموا أننا متدينون وأن ديننا محترم ، وعلى ذلك صار أتباعنا يذبحون الذبائح باسم الله على قارعة الطريق ليفهم الانكليز أننا لا نأكل لحم الحيوان الميت كما يأكلونه ، واطمأنت قلوبنا إلى الطعام الذى نأكله أكثر من أى وقت آخر منذ غادرنا البلاد الاسلامية . وصار المؤذن ينادى فى أوقات الصلاة بالأذان الاسلامي . وقال محمد بك إن الصلاة فى هذه البلاد غير الاسلامية أقل بركة منها فى بلاد مسلمة . وأشار علينا بأن نضاعف عدد الصلوات حتى يقبلها الله من هذه الأرض غير الطاهرة

ولكن ملاحظته هذه منعت أكثرنا عن الصلاة بتاتاً ، وقلنا إنه ما دامت البلاد نجسة فما فائدة الصلاة فيها ؟ إذن فلنوفر صلاتنا حتى نعود إلى فارس

وعلى ذكر الصلاة أقول إنه من اليوم الذى ظهرت فيه الشمس فى بلاد الانكليز أمكننا أن نضبط ساعاتنا على الحساب العربى لأننا جعلناها اثنتى عشرة عند الغروب . ومواعيد الصلاة الأخرى معروفة ببعدها وبقربها من هذا الموعد . أما الانكليز فكل شيء عندهم عجيب . والساعات عندهم لها حساب آخر حيث يبدأ يومهم من منتصف النهار

اجترأنا على السير بغير دليل فى طرقات لوندرا بالرغم من استغراب الناس هيئة ثيابنا وتعجبهم منا ، فاننا كنا نبعد كثيراً عن مكان السفارة . وكثيراً ما ضللنا طريق العودة لأن الطرق عندهم كثيرة الشبه فكل البيوت مبنية على نظام واحد . وكل الشوارع باتساع واحد وطول واحد ، ولكنني اهتديت إلى طريقة نأمن بها الضلال فى أى طريق وذلك أنى كنت أحمل معى قطعة من الطباشير فأضع على كل ركن علامة أهتدى بها فى طريق العودة

وفى يوم من الأيام خرجت مع محمد بك وهو كما عرف القراء شديد المحافظة على شعائر الدين . فلما وصلنا إلى حديقة عامة فى ضاحية من ضواحى المدينة ، وقف على الحشائش الخضراء ودعانى إلى الصلاة . وكانت الحديقة غاصة بالغادين والرائحين إذ يظهر أن ذلك اليوم كان عيداً من أعيادهم

فلما نادى محمد بك : « الله أكبر الله أكبر قد قامت الصلاة » اجتمع حولنا كل من فى الحديقة وأخذوا يحملقون فينا ، فلما بلغنا من الصلاة السجود أخرج كل منا قطعة من الطين طاهرة من أرض (كربلاء) ليضع فوقها جبينه . والقراء يعرفون أننا معاشر الفارسيين لا نسجد فوق كل أرض . ولذلك يحمل كل منا فى جيبه قطعة من أرض كربلاء التى قتل فيها الحسين بن على عليهما السلام ليسجد فوقها . وهذه القطعة تصب بشكل جميل وتكتب عليها أسماء الأئمة الاثنى عشر

وإنى أعترف لك بالحقيقة فأقول إنى غير شديد الحرص على الصلاة فأنا لا أصلى إلا إذا كنت فى خطر ، وإلا إذا رأيت من حولى ينتظرون منى أن أصلى . ومن أجل هذه الحلة كان سرورى شديداً بالصلاة أمام هذا العدد الجم من الناس

لكنه لما عدنا إلى الوقوف بعد السجود تركنا قطعتى الطين على الأرض لنعيد السجود عليهما فى الركعات التالية . وبلغ من وقاحة أحد المتفرجين أن مدّ يده فأمسكها وأخذ يريها لمن حوله ، وهو نصرانى نجس ، والقطعة طاهرة مقدسة ، فلم يكن فى وسع محمد بك إلا أن خرج من الصلاة ولطمه على وجهه . وخرجت أنا أيضاً من الصلاة وانتظرت ماذا يكون ، فرمى الانكليزى قطعة الطين وخلع سترته وشمّر عن ذراعيه . وقد فهمت أن حركته هذه عدائية ، بالرغم من أن نزع القبعات علامة على الود بين هؤلاء القوم

وفى هذا الحين مرّ مترجم السفارة فناديته ليترجم بيننا وبين هذا الرجل . ولشد ما كانت دهشتى عند ما رأيت مترجمنا الانكليزى وقد خلع سترته وقبعته أيضاً وشمر عن ذراعيه ، وتلاكما ملاكمة دلت على الشجاعة من كليهما . فلما تمكن المترجم من إصابة الآخر فى وجهه تصالحا وكأنه لم تكن بينهما حالة عدائية ، وأفهمنا المترجم أنه إنما فعل ذلك بالنيابة عنا ، فشكرناه . وقد كنا نسمع عن كرم العرب فى قرى الضيف ولكننا لم نسمع أن أحداً يلاكم الناس بدلاً من ضيوفه . وهكذا قدر لمحمد بك أن يضرب ولكن على جسم المترجم

وعدنا دون أن نتم الصلاة إلى دار السفارة وأخبرنا السفير بما حدث فدهش من أخلاق المترجم

الفصل السادس والعشرون

البرلمان الانكليزى

فى ذلك الوقت كان فى المدينة حركة غير عادية لم يبق فرد واحد من الانكليز لم يهتم بها ، فخلت البيوت ممن فيها وازدحمت بهم الشوارع حتى صار من الصعب أن يجد المرء لنفسه مكاناً بين الطرقات . فذكرتنا هذه الحالة بعودة الشاه إلى طهران من غزوة أو رحلة طويلة . وسألنا عن السبب فسمعنا إجابات مختلفة

قيل لنا إن أكبر مجلس فى الدولة سيعقد اليوم ، وقيل إنه بالرغم من أن للبلاد ألف كتاب وكتاب فى القانون فانهم لا يزالون بحاجة إلى قوانين

جديدة . وقد حمدنا الله عند ذلك على كمال ديننا فانه ليس لنا إلا قانون واحد هو القرآن وليس فيه تفريط فى شىء . فلسنا فى حاجة إذن إلى أى قانون آخر . وقيل إن هذا المجلس سيجتمع ليحاسب الشاه الانكليزى ووزراءه على النفقات التى ينفقونها. والحق أنه لو اجتمع فى بلادنا أناس ليحاسبوا الشاه على نفقاته لنصبت لهم المشانق ... وقيل بل اجتمع هذا المجلس للبحث فى مسألة ما زالوا يبحثونها منذ مائة عام دون أن يتقدموا خطوة واحدة ، وهذه المسألة هى هل تبقى إرلندا خاضعة لحكم الانكليز أم يتركونها ؟ وإرلندا هذه جزيرة أخرى تريد أن تنفصل عن حكمهم وهم لا يقررون تركها أو البقاء فيها بل يجتمع مجلسهم منذ مائة عام للنظر فى هذا الطلب . وفى هذه الجزيرة سبعة ملايين من الناس يموتون وينشأ بدلهم مثل عددهم وهم راضون عن إرجاء طلبهم كل هذا الأجل . ونحن لا نعرف لماذا يسلك الانكليز أو الارلنديون هذا المسلك ؟

وقد عول السفير على أن يعرف عن هذا المجلس كل ما تستطاع معرفته ليكتب عنه إلى الشاه ليدرك الفرق بين قوة سطوته وضعف الملوك فى الفرنجستان

وأنى لأعجب كيف يستطيع القضاة مباشرة الحكم مع كثرة هذه القوانين ! وهل إذا انتقل قاض من بلدة إلى بلدة يأخذ معه عشرين أو ثلاثين جملا محملة بالقوانين

وإنى لأتساءل أيضاً ما فائدة الملك وما الحكمة من وجوده إذا كان لا ينفق شيئاً إلا حاسبه الناس على ما أنفق ؟ وبالرغم من هذا المسلك السيئ الذى يسلكه المجلس مع الملك فقد علمنا أنه سيذهب عند انعقاده راضياً ليلقى فيه خطبة العرش . ويقولون إن المجلس إذا لم يرض عن هذه الخطبة فان الملك يكون مضطراً عندئذ إلى طرد وزرائه

وصلت الدعوة إلى السفير لحضور هذا الاجتماع فقبلها مسروراً . ولكن الدعوة كانت قاصرة على اثنين فقط هو ومترجمه . ولذلك حرمت أنا وسائر أعضاء السفارة من رؤية هذا الاجتماع . واكتفينا بأن نقف فى الطرق لنرى موكب الملك وهو سائر إلى هذا المجلس . وما كان أفخم هذا الموكب ! لقد كان فيه كل القواد والوزراء ونخبة من كل فرقة عسكرية برية أو بحرية . ولا أعرف كيف يمكن التوفيق بين إجلال الملك باظهار الولاء له وبين اضطهاده ومحاسبته على النفقات وحرمانه من سلطة الحكم ؟

وقفنا تحت ظل شجرة ، وكان الزحام حولنا شديداً فاسترعينا أنظار الناس حتى انصرف الكثير منهم عن النظر إلى الموكب إلى النظر نحونا

وقبل ظهور الملك سمعنا هتافاً غريباً يشبه نواح النساء عندنا ، ولكننا فهمنا أنهم يريدون به التحية . والغريب أن هذا الشعب متفان فى حب ملكه وأنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يترك له شيئاً من الحكم

ولما لم تبق إلا خطوات على عربات الملك صعدنا على الشجرة متسلقين لنتمكن من مشاهدته فأسرع الناس إلى إزالتنا وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه لولا أن أحد الواقفين عرفنا — على ما يظهر — فشفع وقال إنه مهما يكن ما نفعله فانه صادر عن الجهل ، ثم شيعنا إلى المنزل وأفهمنا أن الذى فعلناه أمر كبير فى هذه البلاد . وسألناه لماذا يعامل الانكليز هذه المعاملة ؟ فقال إن الشعوب لا تدرك الحقائق كما هى فاذا حارب الجيش وانتصر نسبوا ذلك إلى

الملك ، وإذا غلا الخبز نسبوا غلاءه إلى الملك ، وإذا نشبت الحرب نسبوها إلى الملك . ولذلك كان واجب الحكومات يقضي بالحرص على عرش الملك ويمنع حدوث الثورة ، وذلك إنما يكون بجعل سلطة الملك محدودة واضحة الحدود فلا ينسب إليه ما لا يمكن دفعه من الطوارىء وما ليس يجوز أن تنسب مسئوليته إليه

قلت : « هل ترى لحيتي هذه ؟ »

فقال : « نعم »

قلت : « إذن فأنا أقسم بها وما أقسم بشيء أقدس منها ، إننا لو وضعنا شاهنا في مثل هذا المركز الذي وضعتم فيه شاهكم لحدثت مذبحة عامة لا يمكن أن تنتهي بخير »

فقال : « إن من الخطأ أن توازن بين انكلترا وبين إيران »

ولما عاد السفير من حفلة افتتاح البرلمان وصف لنا هذه الحفلة فقال: ان الملك ظهر في حلة مزركشة بالذهب وعلى صدره النياشين المجوهرة ، وكذلك كان وزراؤه وأصحاب الألقاب ، وكانوا كلهم حليق اللحى والشوارب كأنهم نساء . وأقسم أنني أحببتهم جميعاً وأن جلودهم أبيض من الثلج وعيونهم تقتل وابتساماتهم تفتن وتسحر

وقد كان بين المتفرجين سيدات لا أستطيع وصفهن . وبالرغم من معرفتنا بسفيرنا معرفة جيدة فاننا لم نسمعه قط يتكلم بمثل هذا اللسان . وقد كنا نسمع أنه إن أحب فالنار تشتعل عندئذ في فؤاده

وقد قال أحد شعرائنا متى أحب الانسان فانه يفيض رقة ولو كان من أغلظ الناس . وأقسم أن السفير عاد من حفلة افتتاح البرلمان وعيناه تنطقان بالرقة والوداعة

"يتبع"

عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠	السنة الأولى في مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧)